موضوعات للتفكير والحوار!

دور التأريخ في العراق

كاظم حبيب

عاش العراق بحدوده الحالية تحت الهيمنة العثمانية ما يقرب من اربعة قرون عجاف لم تنقذه منها سوى تلك الحرب الاستعمارية التي استهدفت إعادة توزيع مناطق النفوذ، إذ تخلص من الاستبداد والظلم والاستغلال الإقطاعي الشرقي والتخلف والجهل والمرض وعصابات الجندرمة التي كانت تلاحق الناس لجبي الضرائب والإتاوات والتجنيد. كانت فترة حكم الدولة العثمانية وما قبلها انقطاع حضاري طويل جداً وغوص في التخلف والظلمات وهيمنة جمهرة من رجال الدين المتخلفين، وليس من علمائه، من مختلف الأديان والمذاهب على مصائر الناس وتحديد اتجاهات تطورهم العقلي والفكري بشكل عام.

لقد حررت الحرب الاستعمارية للفترة 1914- 1918 العراق من هيمنة السلطنة العثمانية البغيضة، ولكنها وضعته تحت الاحتلال البريطاني الحديث. ولم يكن هدف هذا التحرير إنقاذ الشعب العراقي، بل السيطرة عليه واستغلال موارده وخيراته والأيدي العاملة الرخيصة فيه، إضافة إلى احتكار أسواقه لتصريف السلع البريطانية. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف الاستعمارية، اضطرت الحكومة ورؤوس الأموال البريطانية إلى ثلاثة أمور تخدم مصالحها الأساسية، وهي:

1- تطوير الهياكل الارتكازية الضرورية لتحقيق الاستثمار الرأسمالي في الاقتصاد والمجتمع العراقي وتحقيق الأرباح المناسبة من استيراد النفط والمنتجات الزراعية وتسويق السلع البريطانية في السوق العراقي. وقد شملت في نشاطها إقامة طرق المواصلات الحديثة وربط العراق بالعالم الخارجي ومد سكك الحديد وإنشاء شبكات الكهرباء والماء الصالح للشرب ونصب الجسور وتحسين مستوى النقل البري والنهري وما إلى ذلك.

2- المساهمة في تكوين الكوادر العراقية الضرورية لكي تساعد في إنجاز تلك المهمات وتوفير مستلزمات نشاط رؤوس أموالها وزيادة السيولة النقدية عبر تشغيل الأيدي العاملة لتأمين سعة حركة السوق الداخلية لزيادة تسويق سلعها في العراق. وقد شمل هذا إنشاء المدارس المختلفة وإقامة كيان الدولة الحديثة ووضع الدستور العراقي والبدء بإقامة مؤسسات الدولة والجيش والشرطة.

3- البدء بتغيير الاقتصاد والمجتمع من خلال ثلاثة إجراءات ملموسة رغم بطئها الشديد، وهي:

*الإجهاز على العلاقات الأبوية وتكريس العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية في الريف بهدف توسيع الملكيات الزراعية الخاضعة لكبار الإقطاعيين وجعل هذه الفئة قاعدة اجتماعية مساندة لها بحكم تأثيرها على الفلاحين، وأغلبهم من أبناء العشائر.

*غلغلة العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في الاقتصاد العراقي من خلال رؤوس الأموال الأجنبية، وخاصة في قطاعات النفط الخام والتجارة والبنوك وشركات التأمين والرأسمال الربوي.

*فتح الأبواب بحدود ضيقة أمام نمو الرأسمال الوطني والبرجوازية الصناعية وبقية فئات البرجوازية المحلية وبدء نشوء علاقات أولية للمجتمع المدني، سواء من حيث الدستور أو المؤسسات أو المنظمات غير الحكومية والمحاكم.

لم تكن هذه الإجراءات تهدف إلى خدمة مصالح الشعب العراقي، بل كانت موجهة لخدمة مصالح بريطانيا والقوات البريطانية ورؤوس الأموال البريطانية في العراق ولكن الشعب العراقي استفاد منها كنتاج عرضي لتلك السياسات، كما كانت لها نتائج كبيرة جداً منها على سبيل المثال لا الحصر:

1- دخول الفكر البرجوازي الأوروبي الحديث إلى العراق، وهو الذي حرك الفكر العراقي، أو بتعبير أدق: حرك المياه الراكدة في الفكر والمجتمع والاقتصاد العراقي، وفتح على تلك البحيرة بربخاً صغيراً أو ساقية ضيقة لمياه جديدة تدفع بالمياه الآسنة لتتسرب من البحيرة من الطرف الثاني لها ولو ببطء شديد.

2- البدء بالتعليم التدريجي للصبية والشباب والإطلاع على ما هو حديث من كتب ومجلات وجرائد في البلاد العربية أو في غيرها، ودخول الفكر التقدمي والديمقراطي، بما فيه الفكر البرجوازي الثوري الفرنسي والفكر الماركسي إلى البلاد.

3- البدء بطرح أفكار جديدة حول حرية المرأة ودورها في الحياة والاقتصاد وحول العباءة والسفور وموقف الإسلام منهما. وقد نشب صراع اجتماعي سياسي حاد ومديد بين المتخلفين من رجال الدين والمتفتحين من علمائه، وبين الشخصيات الاجتماعية والسياسية العراقية التي كانت مع حرية المرأة وتعلمها ومساهمتها في الحياة العامة وتخلصها من قيد العباءة والبيت والمطبخ وبين من كان ضد حرية المرأة وتعلمها وما إلى ذلك، وانقسم المجتمع على نفسه، وبدأ الوعي الاجتماعي الديمقراطي والتقدمي يتغلغل في صفوفه، وتحرك المجتمع بشكل عام بالاتجاه الصحيح في هذه القضية المهمة.

4- وفي حينها، بدأت تبرز لأول مرة إلى الواقع الاجتماعي النوادي العراقية ومنظمات المجتمع المدني التي تحاول بلورة الأفكار الديمقراطية وتنظيم حياة الإنسان العراقي، ثم برزت من جديد النقابات بصيغتها الحديثة بعد انقطاع طويل جداً.

5- وكان للاحتكاك مع الانجليز، عسكريين ومدنيين دوره المباشر وغير المباشر في تغيير جملة من أخلاقيات وتصرفات الفرد العراقي والمجتمع في المدينة بشكل خاص.

6- حصول تحولات جديدة في بنية المجتمع الطبقية. فإلى جانب الفلاحين بمختلف فئاتهم، توسعت قاعدة فئة العمال الأجراء في المشاريع الأجنبية والعراقية، ونمت فئة المثقفين والمتعلمين والمؤثرين في الحياة الفكرية والسياسية، كما توسعت قاعدة ووزن البرجوازية المتوسطة، ومنها البرجوازية الصناعية. ونشأت مع هذه التحولات الأحزاب السياسية التي سعى كل منها إلى التعبير، بهذا القدر أو ذاك، عن مصالح تلك الفئات الاجتماعية وعموم الشعب العراقي، إضافة إلى نشوء أحزاب مدافعة عن مصالح الهيمنة الأجنبية والفئات المالكة لوسائل الإنتاج، وبشكل خاص فئتا الإقطاعيين والكومبرادوريين.

لقد فتحت هذه السيطرة الاستعمارية، غير المرغوب بها من جانب الشعب والذي قاومها في ثورة العشرين، للعراق نافذة مهمة على العالم ولجت منها رياح التغيير السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والثقافي والتقني الحديث. ولا بد من الإشارة إلى أن جهوداً كبيرة قد بذلت من جانب النخبة الحاكمة، وبدعم ملموس من الحكومة البريطانية، من أجل الحد من سرعة التطور والتحولات الجديدة في العراق، خشية من حركة التحرر الوطني التي كانت تريد التخلص من السيطرة الاستعمارية المباشرة أولاً وغير المباشرة فيما بعد مع تسريع عملية التطور والتحولات الاقتصادية والاجتماعية المنشودة.

ومع أهمية ثورة تموز عام 1958 وما أنجزته في البداية، فإن عصياً غليظة وضعت في طريقها وأعاقت سيرها وتقدمها ثم أطاحت بها وسمحت لوقوع ردة في المجتمع على القيم المدنية في المجتمع فلم يكن قد استكمل بناء وتكريس تلك المؤسسات والقيم المدنية في العراق الملكي والجمهوري الأول.

ومنذ أن جاء البعث للمرة الثانية إلى الحكم في انقلاب القصر في تموز 1968، بدأت عمليتان متوازيتان جنباً إلى جنب، إحداهما محاولة بناء الاقتصاد والقوة العسكرية من جهة ومصادرة كل مظاهر المجتمع المدني المتبقية وفرض الاستبداد والهيمنة المطلقة للفكر الشوفيني والعنصري في البلاد من جهة ثانية. وعاش الشعب مأساة الدكتاتورية والحروب والحصار والموت والقتل الجماعي والحرمان والتخلف الواسع النطاق والغوص في مستنقع المياه الراكدة من جديد طيلة ثلاثة عقود ونصف العقد.

ثم جاءت الحرب الأخيرة التي شنتها الإدارة الأمريكية والبريطانية ضد النظام العراقي الدكتاتوري وأطاحت به وحررت الشعب العراقي من ربقة العبودية للطاغية صدام حسين وزمرته الحاكمة، واحتلت العراق، ووافق مجلس الأمن الدولي على الاحتلال كأمر واقع لتحميل هذه القوات مسؤولية ضمان حماية أرواح وممتلكات وثروات العراق من العبث والتلاعب والنهب من أي طرف كان بمن فيهم المحتلون.

هل يعيد التاريخ نفسه ولكن بطريقة وقوى واتجاهات وظروف أخرى؟ هذا ممكن ولكن على مستويات واتجاهات أخرى.

إن إسقاط النظام الدكتاتوري فتح الأبواب على جملة من المسائل المهمة نشير إلى بعضها فيما يلي:

1- فتحت الأبواب واسعة أمام حرية الصحافة والفكر والتعبير والتنظيم والتجمع والتظاهر والعبادة وممارسة الطقوس والتقاليد لجميع الأديان والمذاهب والاتجاهات الفكرية والسياسية.

2- فتحت الأبواب أمام دخول وخروج العراقيين بكل حرية ودون قيود أو خشية، وبالتالي فتح المجال للإطلاع والتعرف على مستجدات الحضارة الحديثة وإمكانية دخولها إلى العراق من أوسع الأبواب.

3- تحريك المياه الراكدة جداً في البحيرة العراقية وفتح المزيد من السواقي الواسعة السريعة الجريان التي تصب في البحيرة الراكدة لتزيح المياه العفنة منها من مختلف الاتجاهات، كما فتحت أبواب لتسرب سريع ممكن لتلك المياه الآسنة. إن الفكر العراقي الذي كان مغيباً ومتقوقعاً ومحبوساً قد انطلق، وربما انطلق بفوضوية عالية في القول والممارسة، ولكن الحياة والعملية الجارية ستسهم في تقنينه، وسيذهب الزبد جفاء وسيبقى ما ينفع الناس على أرض الواقع. إن نوافذ كثيرة فتحت على العراق وعلينا استثمارها لصالح تقدمه.

4- وسوف يتمكن العراق من دفع عجلة التطور الرأسمالي في البلاد، شاء الإنسان ذلك أم أبى. ومن المفيد أن نفهم ونؤثر إيجابياً على وجهة التطور الاجتماعي للعملية الاقتصادية في البلاد بدلاً من أن نضع العصي الغليظة في عجلة التطور الجديدة. ومن المهم جداً أن نسمح بتطور الرأسمال المحلي وألا نمنع مشاركة الرأسمال الأجنبي للتعجيل بهذه العملية وفق أسس وضوابط نافعة للاقتصاد والمجتمع في العراق، ولكنها غير معرقلة لمشاركة الرأسمال الأجنبي.

5- إن العراق أمام فرصة جديدة لا تمنحها الحرب ولا يحققها الاحتلال، رغم أنهما فتحا الأبواب لتحقيق مهمات معينة لهما، ولكن في مقدور العراقيات والعراقيين الاستفادة منها لصالح العراق واقتصاده ومجتمعه وتطوره المعجل. إنها عملية معقدة وصعبة، ولكنها متوفرة إذا تعاملنا مع الأحداث بطريقة تتجدد إمكانية العراق على الاستفادة من الظرف الجديد.

6- إن القوى التي تمارس العنف والإرهاب في الوقت الحاضر باسم (المقاومة لقوات الاحتلال) كانت هي السبب في الاحتلال، كما كانت السبب وراء كل المآسي والمحن التي عانى منها الشعب العراقي وما يزال يعاني من تركتها الثقيلة. وفي نشاطها الراهن، تحاول إعاقة عملية الاستفادة من الظرف الجديد لصالح بناء المجتمع الحر الديمقراطي المزدهر وسيادة مبادئ وشرعة حقوق الإنسان والحقوق القومية المشروعة وإقامة الجمهورية الاتحادية الديمقراطية العراقية.

إن الحرب والاحتلال ووجود القوات الأجنبية حرك المياه الراكدة والآسنة، ثم أسقط الخوف إلى حدود غير قليلة، رغم أنه ما يزال عالقاً بأذهان الناس لبشاعته، وأطلق القمقم من سبات طويل، رغم أنه ما يزال يترنح من هول الصدمة والسبات العميق، وما علينا الآن توجيه الوضع الوجهة السليمة والديمقراطية في تحركه وتطوره وخدمته للمجتمع العراقي على طريق الحضارة الحديثة وبعيداً عن الفكر المتزمت والمتعصب والمنغلق على نفسه أياً كان مصدره ومقاصده. إنه الطريق الذي يفتح الباب على مصراعيه صوب الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وإنهاء الاحتلال واستعادة العراق لاستقلاله وسيادته الوطنية بأسرع وأقرب وقت ممكن.

العمل الأمريكي في العراق (2-2)

نهاية عقيدة بوش

آرثر شليسنجر
ترجمة : سعد فوزي

إن التغيير المذهل الذي أجراه الرئيس بوش في مسار السياسة الخارجية الامريكية قد لاقى معارضة فعالة، ولكنها محدودة. فلقد التفّ الناخبون حول العلم بعد الحادي عشر من ايلول حين بدأ الامريكيون يفكرون بأن كل فرد منهم عرضة لهجوم العدو. ويعتقد الديمقراطيون في ظل هذه الحالة المتعلقة بأمن البلاد، أن النقد الموجّه الى سياسات الرئيس ربما يكون خاطئاً بسبب الافتقار الى الروح الوطنية كما ينبغي.

وفي اعتقادي، ان اللوم يقع على الصحافة والتلفزيون ايضاً لأعمالهم رأي المعارضة، فقد كانت التصريحات والتعليقات التي تصدر عن تشيني ورامسفيلد تحتل العناوين الرئيسية لمعظم الصحف الأمريكية، وبضمنها صحيفة (نيويورك تايمز)، بينما كانت الأحاديث الموضوعية والرصينة التي يدلي بها كل من ادوارد كندي وروبرت بايرد، التي تعارض حالة الاندفاع وراء فكرة الحرب الوقائية تختصر الى فقرة صغيرة في الصفحات الاخيرة او تهمل بالكامل. لقد استدعى الأمر أن يقوم احد المحسنين بدفع تكاليف نشر نص حديث بايرد الموضوعي الذي يعارض الحرب والذي ادلى به في الثاني عشر من شباط فنشرته صحيفة (تايمز) في التاسع من آذار على طول صفحة الإعلانات. ان الفشل في منح معارضي الحرب الوقائية فرصة مماثلة لتلك التي منحت لخصومهم قد اجهضت كل محاولة لإقامة حوار وطني حول (عقيدة بوش).

واكثر من ذلك اجرت صحيفة (واشنطن بوست) في شهر آب من عام (2003) استطلاعاً اظهر أن (69%) من الأمريكيين ما يزالون يعتقدون بأن صدام حسين، شخصياً، غير متورط في عملية الهجوم على البرجين الشهيرين.

فمن أين يا ترى حصلوا على تلك الفكرة؟ ربما يكونون قد استقوها من بلاغة خطب الادارة الامريكية المتسربة عبر الصحافة فمما لا شك فيه ان صدام حسين وغد كبير، إلا ان لا شأن له بالهجوم على البرجين، كما اعترف السيد بوش بعد ذلك في السابع عشر من أيلول.

يجب علينا ان لا نقلل من أهمية المعايير التي يضعها الرئيس بوش نصب عينيه في شق طريقه، فهو رئيس لم يبلغ النضج التام اذا جاز التعبير، كما انه كان قد خسر في الانتخابات الشعبية اكثر من نصف مليون صوت.

لقد كان جون كوينسي آدامز اول رئيس قليل النضج، وهو ابن رئيس ايضاً، ولكنه افتتح فترته الرئاسية بالاعتذار الآتي:

(مهما تكن قناعاتكم فاني ادرك ادراكاً عميقاً اكثر من اسلافي ذلك المشهد الذي سأقف فيه مراراً وتكراراً سائلاً اياكم أن تغفروا لي) غير اننا لا نجد مثل هذا النوع من الاعتذار في الخطاب الافتتاحي للسيد بوش، فقد كانت لهجته اقرب الى لهجة من يحقق نصراً ساحقاً ويهنأ به. وبسبب الجانب الهزلي في شخصية الرئيس فانه يبدو واثقاً من نفسه ومنظماً وحازماً ومخادعاً وذا قدرة عالية على التركيز على بضعة اولويات دون غيرها. لقد اكد الرئيس تحكمه بائتلاف جمهوري ضعيف، الأمر الذي حدا كيفن فلبس، الذي كان قد ألف سنة (1969) كتاب (بروز الاكثرية الجمهورية) الى وصفه وصفاً دقيقاً حينما قال عنه انه يجمع بين (وول ستريت) و (المؤسسات العابرة للقومية) و (مركب الصناعة العسكرية) و (الحقوق الدينية) و (عقيدة السوق المتطرفة) و (الدبابات).

فكل هذه الاشياء تقدم دعماً قوياً للرئيس على الرغم من أنها متناقضة فيما بينها.

المؤمن بوش

يتميز الرئيس بوش بطبعه الذي يشع صفاءً وبهجة، إلا انه سرعان ما يتكدر اذا واجهته مشاكل او تحديات معقدة. لقد قال مرة لبوب وودورد، (لا يوجد لدي ادنى شك في أننا نقوم بعمل الشيء الصحيح) انه يقول: (لا يوجد لدي ادنى شك)! بعض اصدقاء الرئيس يعزون هذا الوضوح في شخصيته الى عقيدته الدينية، فيما يذهب وودورد الذي اجرى مقابلة معه دامت اربع ساعات تقريباً ادخل فقرات منها في كتابه (بوش في الحرب)، حداً بعيداً في انطباعاته عن الرئيس بوش حينما قال: (ان الرئيس يقوم بما يقع على عاتقه من مسؤولية من اجل البلاد وفق الرؤية العظيمة للإرادة الإلهية) وقد قال السيد بوش لكارل روف، النجم الذي يستشيره في الأمور السياسية: (اني هنا من اجل سبب معين، وهذا السبب هو الذي سيحدد الطريقة التي ستتم محاسبتنا على اساسها). وفي هذا الصدد، علق احد شيوخ السنين قائلاً: (ان الرئيس يؤمن حقاً بأنه قد اختير لهذا المنصب ليفعل هذا (يعني سياسته العسكرية) جزء من الإرادة الإلهية).

اذن، فلا مجال للشك في اخلاص وإيمان السيد بوش بمعتقداته الدينية التي خدمت بدورها اغراضه السياسية.

ان تطبيقات رجال الدين لا يمكن الوثوق بها بشكل تام، ومع هذا فان ثلث الامريكيين ربما يكونون قد بعثوا كمسيحيين (انجيليين) من جديد. لقد كان البروتستانت الاصوليون، في فترة من فترات شبابي مهيئين لأن يصبحوا اعداء للكاثوليكية والسامية على حد سواء، فقد قادوا حملة ضد آل سمث عام (1928) وحملة أخرى ضد جون كندي عام (1960)، كما قاموا باعدام ليوفرانك في جورجيا عام (1915) بدون محاكمة قانونية. لقد كان الاصوليون في تلك الايام اقلية محتقرة ومعزولة، وفي آخر اجيالهم اقام اليمين المسيحي تحالفاً مع الجناح اليميني للكاثوليك حول مسألة الإجهاض، وتحالفاً آخر مع الجناح اليميني اليهودي حول مسألة الأراضي المقدسة. فكانت النتيجة أنهم اصبحوا الآن قوة سياسية قاهرة يمكن ان تؤثر على (40%) من نتائج الانتخابات. وها هم يقدمون ولادة جديدة لرئيس ذي منافع جمة.

وبنفس الطريقة التي استخدم بها آيزنهاور عباراته الضبابية المشوشة لخداع الجمهور، قام السيد بوش ايضاً بتظليل الناس، ولا سيما المفكرون الليبراليون (المتسامحون).

لقد نشرت صحيفة (Time) مقالة لمايكل كنسلي تحت عنوان (سلطة الفرد الواحد) وصف فيها بوش وصفاً دقيقاً عندما قال عنه: (انه قائد بحق) وهذا الوصف لا يعتبر تلميحاً لأن السيد بوش يملك وزناً من حيث الخبرة والوعي اللذين يؤهلانه لامتلاك القوة المتميزة، بقدر ما يشير الى انه حاذق وماهر في تعبئة الآراء المؤيدة له وتحييد المعارضة منها ويتفق دالدير وليندسي مع كنسلي في هذا الرأي حين يذكران: (لقد تولى جورج بوش منصب الرئاسة وسط اجواء تشكك في مقدرته على السيطرة على السياسة الخارجية، إلا انه استطاع ان يثبت خطأ المشككين به من سائر الاوجه الى الدرجة التي فاجأ فيها اقرب انصاره. فقد كان حازماً واقوى العزيمة وزعيماً لمستشاريه بحق).

لقد كانت الحرب الوقائية على العراق حرباً من اختيار بوش فهي ليست كالحرب العالمية الثانية التي فرضت على الولايات المتحدة، ولم تكن كحرب كوريا او حرب الخليج الاولى او الحرب ضد طالبان، التي كانت رداً على الأفعال العدوانية السافرة، وليست كالحرب في فيتنام وهي الحرب التي اقحمت الولايات المتحدة نفسها في اتونها بلا داع. فلقد استطاعت الخبرة العسكرية العالية ان تحافظ على جذوة حماسها في الحرب على العراق، من دون ان تكون هنالك اية ضجة شعبية حول الحرب، فلو لم تشن الولايات المتحدة هذه الحرب لما استطاع اكثر الامريكيين ان يكترثوا بالأمر او يلاحظوه. لقد تطلب الامر رجلاً واحداً ليقرر الحرب ويعلنها ويرسل آلاف الوحدات العسكرية الى ارض المعركة، في الوقت الذي كانت فيه باقي دول العالم تشكك بالحجج التي اندلعت على اساسها تلك الحرب.

عقيدة بوش الآن

والآن لنطرح هذا السؤال: ما هي مكانة عقيدة بوش اليوم؟ اعتقد ان بوش قد حطم عملياً، والى حد بعيد، تلك العقيدة نتيجة تعرض مصداقيته للانكماش. فقضية الحرب الوقائية برمتها تتوقف على افتراض اننا نمتلك معلومات استخبارية موثوقة ودقيقة حول نوايا العدو وامكاناته العسكرية، وهي معلومات موثوقة ودقيقة بما فيه الكفاية لأرسال شبابنا من الرجال والنساء ليقتلوا ويُقتلوا.

وفي هذا الصدد يقول روبن كوك وزير الخارجية البريطاني الأسبق الذي استقال من حكومة بلير بسبب الحرب (بدلاً من استخدام المعلومات الاستخبارية دليلاً اساسياً في اتخاذ القرار السياسي، استخدمناها واعتمدناها قاعدة لتبرير سياسة كنا قد قررناها فعلاً) وها نحن ننتبه الآن (كما تفعل بعض وسائل الاعلام في اثارتها للشكوك مجدداً) الى تلك الحملة المفرطة التي بداها بوش وحلفاؤه في تمسكهم بفتات المعلومات الاستخبارية التي تدعم سياستهم، والتي ظهر فيما بعد ان البعض منها مزيف والبعض الآخر عبارة عن حجج باطلة وبعضها يشوبه النقص وغير مكتمل وبعضها الآخر عفا عليه الزمن وتم إهماله والبعض منها عبارة عن بدع ليس إلا.

ان ادارة بوش ليس لديها لحد الآن شك واحد في امتلاك صدام حسين لأسلحة الدمار الشامل، وليس لديها أدنى شك ايضاً بشراكته مع اسامة بن لادن او مقدرته الفائقة على تصنيع قنبلة نووية، ولا تشك ايضاً في مسألة الترحيب الحار الذي يحظى به جنودنا في العراق بوصفهم محررين غير ان انهيار تلك الفرضيات التي حملت على محمل الجد تسمح بالقول بأن عقيدة بوش تفرض الآن على مؤسستنا الاستخبارية اعباء ثقيلة جداً تنوء تحت وطأتها، لأننا ببساطة لم نستطع ان نطلع على كل الاشياء التي كان علينا معرفتها قبل الاقدام على تلك الحرب. ان الشرخ الذي حصل في مصداقية الادارة الامريكية في العراق قد ينسف بقوة سياسة الحرب الوقائية، فقد كانت الحرب الافغانية بعد الحادي عشر من ايلول ضرورية طالما رفض تنظيم طالبان نبذ ابن لادن. اما الحرب على العراق فقد كانت مسألة اختيار وموضع جدل.

فوضى عراق ما بعد صدام

لقد قادنا السيد بوش الى فوضى عارمة نتيجة لافتقار ادارته الصارخ للخبرة في التخطيط للعواقب ولما ستؤول إليه الأمور. وفي هذا الشأن تحدث ريتشارد لوكر العضو الجمهوري ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ قائلاً بصراحة تامة وحيادية: (ان التخطيط البائس لفترة ما بعد الحرب قد استلهم من فرضيات الادارة الامريكية، وهي ببساطة غير وافية بالغرض للشروع في تنفيذها) بينما ادلى السيناتور جك هيجل ممثل ولاية نبراسكا، وهو جمهوري ايضاً، برأيه بصراحة اكثر وبلا مواربة حيث قال:

(لقد قام البيت الأبيض بعمل رديء عندما وضع خططه للعراق لمرحلة ما بعد صدام) وقد تعززت تلك الشكوك لدى اعضاء مجلس الشيوخ عن طريق تقرير البنتاغون السري الذي تسرب بسهولة الى صحيفة (واشنطن بوست) ونشر في الثالث من ايلول بعنوان (تحرير العراق: دروس ستراتيجية تم تعلمها) اذ يتحدث هذا التقرير عن حرب العصابات التي تدور رحاها ضد الوحدات العسكرية الأمريكية.

وفي كشف اولي للحساب ظهر أن تكاليف هذه العملية قد بلغ لغاية اليوم (87) مليار دولار امريكي وهو مبلغ قابل للزيادة في الايام المقبلة. يبدو ان حالنا يشبه حال ملتون سامسون في غزة، فنحن بدورنا فاقدو البصر في العراق.

ان قدرة الرئيس بوش على حشد ائتلاف جديد يرغب في شن حرب وقائية على ايران أو كوريا امرٌ مشكوك فيه. أليس صحيحاً القول ان عقيدة بوش قد اثبتت فشلها فعلاً؟ هناك سلسلة من الاعترافات ايضاً، فقد علق هنري كيسنجر على هذه المسألة قائلاً (ليس من المصلحة الوطنية في شيء ان تقوم امريكا بتكوين حالة مثلى وتعتمدها كمعيار عالي يمكن تطبيقه على جميع الشعوب). وعليه، فان ادخار هذا الدور للولايات المتحدة وحدها دون سواها سيجعل من هذه الامة بمثابة القاضي وهيئة المحلفين والجلاد لهذا العالم، بل ان بعض الاسوياء من الامريكيين يرون ان اسناد هذا الدور الثلاثي للرئيس الامريكي ربما يجعل الأمم او الدول الاقل قوة تشعر نحونا بالكراهية والحقد.

ومن الامثلة على ما مرّ ذكره تلك الدراسة الموسعة التي قامت بها مؤخراً (german marshall fund) والتي تشير الى التحول المدهش في الرأي الاوروبي تجاه الولايات المتحدة، اذ عبر اكثر الاوروبيين عن استهجانهم الشديد للسياسة الخارجية للولايات المتحدة. اما الايطاليون والألمان فقد سجلوا زيادة في هذه المشاعر بلغت عشرين نقطة في الاستطلاع الذي اجري مؤخراً مقارنة مع مثيله في العام الماضي. وتجدر الاشارة في هذا السياق الى ان احد الاشخاص صرح لصحيفة (لوموند) الفرنسية بعد الحادي عشر من ايلول قائلاً: (نحن جميعاً نقف مع امريكا) اما بعد الحرب على العراق فقد صرح جين دانيل في صحيفة (لانوفل اوبزرفاتور) على ضوء معارضته لأمريكا قائلاً: (نحن جميعاً لا نتفق مع أمريكا)، وكما نرى، تجاهلت الادارة الامريكية وجهات نظر العالم بسبب نزواتها، مفضلة اتباع نصيحة ميكيافيللي: (ان تكون مهيب الجانب اكثر اماناً من ان تكون محبوباً).

لقد صرح العضو الفدرالي الثالث والستين قائلاً: (ان مسألة توجيه تحذير لحكومات الدول الاخرى هو امر في غاية الاهمية يتوجب على كل حكومة وضعها في الحسبان وذلك لسببين، الأول هو ان المزايا الايجابية لأية خطة او معيار معين تظهر للأمم الأخرى على شكل سياسة حكيمة جديرة بالتقدير والاحترام. اما السبب الثاني فيتمثل في ان خير دليل يمكن الاهتداء به للتوصل الى ابداء رأي في القضايا المثيرة للجدل (وخاصة عند احتمال ان تكون الهيئات الوطنية واقعة تحت تأثير عاطفة عارمة او مصلحة وطنية آنية) هو الفرضيات والآراء السديدة للعالم المنصف وغير المتحيز.

ان الدور الثلاثي آخذ في السير نحو افساد بلادنا نفسها على حد تعبير جون كوينسي آدمز الذي ربما يكون اعظم وزير للخارجية في تاريخ امريكا، فقد تحدث في الرابع من شهر تموز عام (1821) قائلاً: (حيثما يكون مقياس الحرية والاستقلال منتشراً، سيكون هنالك قلب امريكا وبركاتها وصلواتها، ولن يكون عليها ان تغادر البلاد لتبحث عن الوحوش وتدمرهم) وقال آدمز في مناسبة اخرى مستقرئاً مستقبل التوجه نحو خوض حروب غريبة تختفي وراءها المصالح والدسائس: (ان القيم والمثل الجوهرية التي تقوم عليها سياسة الولايات المتحدة قد تشهد تحولاً، من الإيمان بحرية الاختيار الى اتباع مبدأ القوة الذي ربما يقودها الى ان تكون دكتاتوراً لهذا العالم، وحينها سوف تكون غير قادرة على كبح جماح تطلعاتها).

لقد ادى الدور الثلاثي ايضاً الى بعث الأمل من جديد في فكرة الزعامة الأمبريالية للعالم بأجمعه. وها هو تحذير آخر صادر في حقبة سابقة من تاريخ امريكا، فأثناء الحرب مع المكسيك بعث الشاب ابراهام لنكولن الذي كان ممثلاً لولاية الينويز في الكونكرس الامريكي برسالة في الخامس عشر من شهر شباط عام (1848) الى زميله في المحاماة وليم هيرندون يشير فيها الى وجود هفوات فعلية في مواد الدستور وخاصة فيما يتعلق بالفقرة التي نصطلح على تسميتها في يومنا هذا بـ (عقيدة بوش) والتي تنص على (السماح للرئيس باتخاذ قرار اجتياح الدول المجاورة في اي وقت يجد فيه ان اتخاذ مثل هذا الاجراء ضرورة ملحة للتصدي للاعتداءات) اذن، فانت تسمح له بفعل ذلك متى ما يشاء ومتى ما يقول أنه يجد ضرورة ملحة لاتخاذ مثل هذا الاجراء فتسمح له ان يشن الحرب بكل سرور. فاذا اختار اليوم مثلاً ان يقول انه يفكر في ضرورة القيام باجتياح كندا للحيلولة دون قيام بريطانيا بالهجوم علينا، فكيف يمكنك ان تمنعه من القيام بذلك؟ لقد تقول له (انا لا أرى اي احتمال لوجود نية لدى بريطانيا لمهاجمتنا) بيد أنه سيقول لك (التزم الصمت، فأنا ارى ذلك ان كنت لا تراه).

ذكر لنكولن بأن (مؤتمر فلادلفيا) عقد ليشير الى هذه الفقرة من الدستور بالقول: (ليس بوسع رجل واحد ان يمارس السلطة منفرداً ليضعنا تحت رحمة هذا الاضطهاد).

لقد نصب الرئيس الامريكي نفسه قاضياً وهيئة محلفين وجلاداً في نفس الوقت لهذا العالم.

لقد قال الرئيس جون كندي مرة: (يجب علينا ان نواجه الحقيقة، فنحن لا نمثل سوى (6%) من سكان العالم، وليس بأمكاننا ان نفرض ارادتنا على (94%) المتبقية من سكان البشرية الآخرين واننا لا نستطيع تصحيح كل الاخطاء او نوقف كل محنة، ولأجل كل ذلك فلا يمكن ان تكون هنالك حلول امريكية لكافة مشاكل العالم).

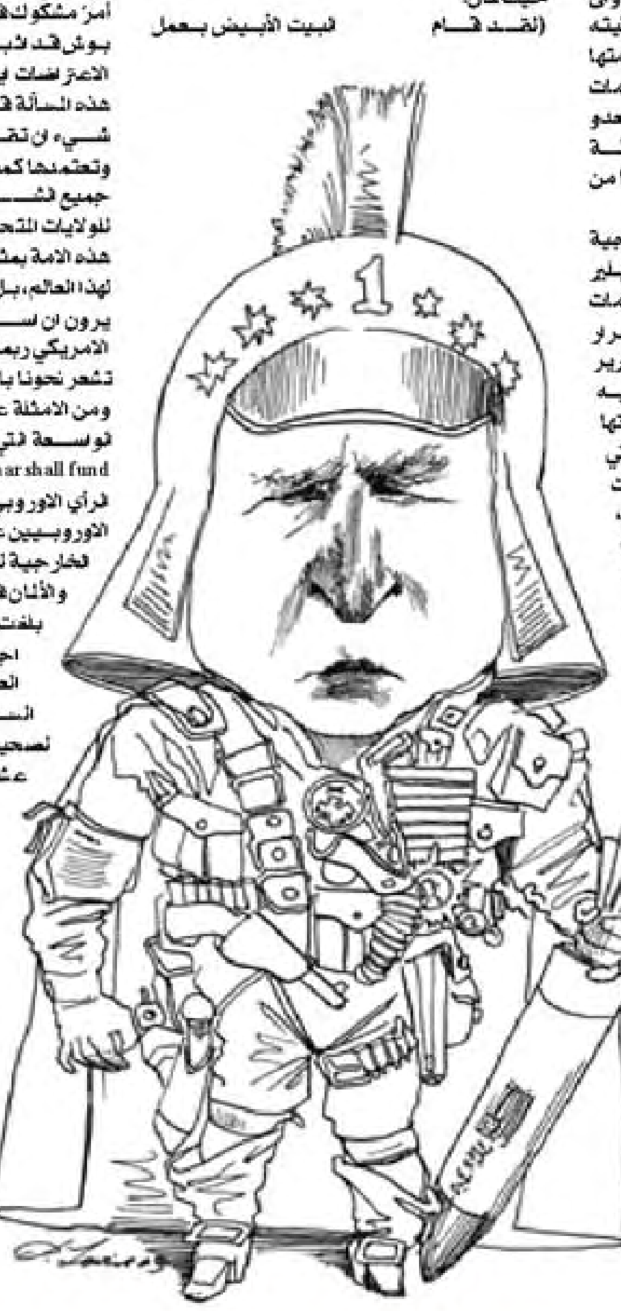

---

* هذا النص هو الجزء الثاني من الترجمة العربية لبحث آرثر شليسنجر الذي يحمل عنوان: (Eyeless in Iraq) المنشور في الدورية الامريكية: (New york review of Books) عدد (23) تشرين الأول (2003).